٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسئلة الكتاب صـ ٢٠

رحلة ابن بطوطة

دراسة
عبد الجبار السامرائي

ص . ب ٤٦٩ بغداد

في الوقت الذي اختتم فيه (ماركو بولو) البندقي تجواله في أعماق الأراضي والمجتمعات الآسيوية، ودون رحلاته ومشاهداته، ولد بطنجة. . . ابن بطوطة، وكأنّ الله أراد أن يجعله خلفاً لماركو بولو كيما يستكمل دوره، وقد جاب ابن بطوطة اكثر ماعرف لزمانه من بلاد العالم. وترك لنا كتابة الموسوم (تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ليكون أصدق وثيقة وتحفة خالدة تزين جيد الأدب العربي.

من هو ابن بطوطة؟

هو اعظم الرحالة العرب قاطبة، واكثرهم طوافاً في الآفاق، وأوفرهم نشاطاً واستيعاباً للأخبار، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجوّل فيها. ويشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لايقرّ لهم قرار، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلىٰ أن يركبوا الصعب.

ولد ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي المعروف بـ «ابن بطوطة» في مدينة (طنجة) سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م من أسرة كريمة، أتيح لكثير من ابنائها الوصول إلىٰ منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية.[1]

الرحلة

تفتحت مواهب ابن بطوطة حين شبّ عن الطوق، وغدا شاباً رشيداً في الثانية والعشرين، عندما عزم علىٰ مغادرة بلاده لأداء فريضة الحج. كما يروي هو نفسه:

(قال الشيخ ابو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعماية معتمداً حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب اكون في جملته لباعث من النفس شديد العزايم وشوق الىٰ تلك المعاهد الشريفة كان في الحيازيم فحزمت أمري علىٰ هجر الإناث من الأحباب والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والدي بقيد الحياة، فتحملت لبعدها وصباً، ولقيت كما لقيا نصباً، وسني يومئذٍ اثنتان وعشرون سنة).

وقد جاء هذا العزم علىٰ الحج الىٰ بيت الله الحرام حدثاً هاماً في حياة ابن بطوطة، دفعه الىٰ أن ينفض عنه ثياب الدعة والاستقرار، ويرتدي ثوب الارتحال والتجوال، مخلّداً اسمه في ميدان الرحلات التي قام بها قبله رجال من المسلمين منذ القرن الثالث الهجري، حين ارتادوا بلاد الدولة العربية المترامية الأطراف، من حدود الهند شرقاً الىٰ المحيط الأطلسي غرباً،

WWW.ATTAWEEL.COM

ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحارى افريقيا جنوباً. وتجدر الاشارة الى أن رحلات اولئك الرحالة الأوّل تختلف عن رحلة ابن بطوطة؛ كونها متخذة صفة رسمية، قام بها مبعوثون وسفراء من قبل السلطات المركزية الاسلامية ببغداد، لوصف الطرف والممالك التي تربط العاصمة بالبلاد التابعة لها، ولدراسة الأحوال التي تساعد أولي الأمر على إدارة هذه الدولة الكبرى، وتطبيق أحكام الشريعة فيها. ومما يسترعي الانتباه حقاً هو ان ابن بطوطة كان آخر الرحالة الكبار الذين انتظمت رحلاتهم محيط العالم الاسلامي بأسره. وبالتالي، فقد بات الرجوع إليه أمراً حتمياً على أي باحث يود الخوض في تاريخ الأوردو الذهبي، وآسيا الوسطى، رغم أن رواياته عن الصين والهند تحاكي في أسطوريتها «أسفار السندباد» و «عجائب الهند». ومهما اختلفت حوله الآراء، فإن من المستحيل انكار انه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية، اي انه لم يكن نقّالة يتكئ على كتب الآخرين، بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار، وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمس وسبعين ألف ميل، فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سناً (ماركو بولو) البندقي. ولعل المقارنة بين الاثنين قد بولغ فيها احياناً، ولو أنها لاتخلو من الطرافة في بعض جوانبها، فالصياغة الأدبية لكلا الرحلتين مثلاً، لاترجع الى صاحب الرحلة نفسه بل الى شخص آخر، كما أن كلا المصنفين يكمل احدهما الآخر بالنسبة لمعلوماتنا عن آسيا، فالرحالة البندقي عرف الشرق الأقصى خيراً مما عرفه المغربي، وفي مقابل هذا يُضحي أمراً طبيعياً أن يكون لابن بطوطة احساس ذاتي بظروف حضارة العالم الاسلامي الذي يصفه اكثر مما كان لدى البندقي. ومما يقرب بين الاثنين انهما لايتميزان في المحيط الجغرافي الى الجغرافيين العلماء، ولو أنه يجب الاعتراف بأن وصف المواطن المغربي لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره البندقي، غير أن هذا يجب الا ينسينا شطحاته، فمما لاشك فيه أن وصفه لـ «أرض الظلمات» الواقعة خلف أراضي البلغار، إنما يرجع فيه الى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبي أساء فهم روايته، كما أن وصفه لبلاد طوالسي الواقعة في مكان مامن كوشين ـ صين Cochin — China يتضمن أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطاً كلياً. إلا أنه كلما تعرّضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة، زادت الثقة في صدق روايته يوماً عن آخر.

لقد بدأ ابن بطوطة رحلته من طنجة ماراً في طريقه على (بجاية) وتونس وطرابلس حيث تزوج، ومن ثم وصل الى الاسكندرية، وفيها التقى عدداً من العلماء أمثال برهان الدين وأبي عبد الله المرشدي، ولكنه لم يلبث ان انتقل الى دمياط، حيث أعجب بنظامها، ومنها ركب النيل متجهاً إلى القاهرة عاصمة البلاد، مشيراً الى ازدهارها أيام المماليك على الصعيدين الاجتماعي والعمراني. ومن القاهرة تابع سيره للإلتحاق بقافلة الحجاج من دمشق، بعدما تعذّر عليه ذلك عبر البحر الأحمر بسبب حروب دارت رحاها بين المماليك وقبائل البجة. ومن خلال مطالعتنا لما جاء على لسان ابن بطوطة نتبين قوة السلطة المركزية في كل من مصر والشام في حفظ سلامة المسافرين، وتأمين الوسائل التي تساعد على تنقلهم بسهولة؛ وهذا ماشجع ابن بطوطة على زيارة معظم مدن فلسطين، وخاصة بيت المقدس، حيث أبدى اعجابه بروح الإخاء والمودة التي كانت تسود العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة الشامية برمتها. وكذلك يشيد بالمسجد الأموي في دمشق كظاهرة فريدة من مظاهر إزدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية هناك؛ في حين اننا نرى روعة المسجد واهميته لم تختلف عن المساجد الأخرى في العواصم الاسلامية. وقد أشار الى امور عديدة أخرى، كتوزيع مال الأوقاف للفقراء الراغبين في تأدية فريضة الحج، وللبنات اللواتي لاقدرة لأهلن على تجهيزهن حين الزواج ومن دمشق توجه ابن بطوطة مع الركب الحجازي في الاول من شوال متجهاً إلى مكة. والجدير بالذكر ان وصفه لرحلته هذه هو صورة واضحة تصلح لان تكون دليلاً يتضمن معلومات جغرافية وتاريخية لمن يرغب في زيارة تلك الاماكن المباركة؛ ولم يقتصر تعريفه على الاماكن الواقعة في مكة والمدينة، بل تعداها الى تلك التي تقع في العراق ومعظم انحاء الجزيرة العربية.

أما أبرز مايلفت الانتباه، الإشادة، بالحياة الاجتماعية في مكة وسط إسهابه في الحديث عن أماكنها المقدسة، والشعائر الدينية التي تقام فيها، فذكر ماتحلّى به أهل مكة من مكارم الاخلاق، وماطبعوا عليه من حميد العادات؛ فكانوا يبالغون في إكرام الغرباء والمنقطعين. ولم يبق ابن بطوطة طويلاً في مكة بعد

أن انتهىٰ من مناسك الحج، إلا انه لم يفكر كذلك في العودة الىٰ وطنه، اذ تحركت في نفسه غريزة التجوال وارتياد البلاد، وبدأ مرحلة جديدة من الرحلات، كانت الدرجة الأولىٰ في سلم طويل ارتقاه حتىٰ وقف علىٰ قمة أحوال العالم المعروف علىٰ عهده، حيث شاهد عجائبه وآثاره، قانعاً بأن يقضي من عمره نحواً من عشرين سنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة. وهكذا حقق ابن بطوطة فراسة العالم الذي التقاه في مصر برهان الدين، الذي خاطبه ـ كما جاء علىٰ لسان ابن بطوطة ـ : «اراك تحب السياحة والجولان في البلاد» فأجابه بالايجاب. وهنا قال له:

لابد لك إن شاء الله من زيارة الهند، ومقابلة أخي فريد الدين بها، وكذلك النزول بأرض الصين، والالتقاء بأخي برهان الدين هناك، فإذا بلغت هذه البلاد، فاقرئ أخوتي بها السلام».

ومن مكة التي زارها لتأدية فريضة الحج ثانية، توجه ابن بطوطة الىٰ زيارة أقوام جدد من المسلمين علىٰ ساحل أفريقيا الوسطىٰ، وعزم علىٰ الذهاب الىٰ هذه البلاد ماراً بيلاد اليمن، ثم لم يلبث أن عاد الىٰ مكة ثالثة، فمرّ في طريقه اليها علىٰ اليمامة ثم اجتاز البحر الأحمر الىٰ عيذاب ومنها إلى القاهرة.

وهكذا اجتاز ابن بطوطة ـ في دورته الثانية ـ الشام ليصل الىٰ آسيا الصغرىٰ. . . ومنها وصل الىٰ (سينوب) علىٰ البحر الاسود، ومنها يمم شطر بلاد المغول، حيث رست سفينته في مرسىٰ يدعىٰ الكرش الواقع ضمن دائرة نفوذ القبيلة الذهبية التي تعود الىٰ اصول مغولية. ومن ثغر الكرش انتقل الىٰ ثغر (كافا) وهي فيدوسيا حالياً حيث كان اكثر سكانه من اهل جنوه. ولكنه لم يلبث ان رحل منها الىٰ مدينة القرم حيث اكرم وفادته حاكمها تلكتمور؛ وهنا اسهب ابن بطوطة الحديث عن وسائل المواصلات ومايتصل بها، اذ وصف العربات التي تساعد المسافرين علىٰ التنقل بسهولة فهي متعددة متنوعة قوامها الخيول وغيرها من الحيوانات؛ مما يدل علىٰ التقدم الصناعي في تلك المناطق، ثم وصل ميناء (كفا) الذي يعتبره ابن بطوطة من الموانئ العالمية الخمسة الكبرىٰ الىٰ جانب (ميناء الاسكندرية في مصر وكلم وقاليقوت بالهند والزيتون بالصين).

وقد كان له وقع بارز في نفسه، سمع ولاول مرة في حياته اصوات نواقيس الكنائس وفي طريقه، جال ابن بطوطة في جميع انحاء شبه جزيرة القرم وروسيا الجنوبية، ومن هناك بلغ ارض البلغار الفلغا، ثم خرج من استراخان (حاجي طرخان) مع قافلة الأميرة البيزنطية، إحدىٰ زوجات الخان أوزبك، فبلغ القسطنطينية، ومن هناك، رجع مرة ثانية الىٰ مملكة الاوردو الذهبي، فوصل الىٰ مقر الخان بمدينة سراي، ثم عبر نهر الفلغا، فوصل الىٰ جنوه، وغادرها الىٰ بخارى فافغانستان، ودخل الهند في غرة محرّم من عام ٧٣٤هـ/١٢ أيلول ١٣٣٣م. وبدخول ابن بطوطة بلاد الهند، عادت به الذاكرة الىٰ تلك الفترة الأولىٰ التي أخذ الاسلام يشق فيها طريقه الىٰ هذه الرقعة الحافلة بألوان المدنيات القديمة. فكانت الجهات التي بدأ بزيارتها أولى البقاع التي وصل اليها المسلمون، حين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق جيشاً بقيادة ابن عمه محمد بن القاسم سنة ٨٩هـ لفتح السند. وفور وصول ابن بطوطة إلىٰ دلهي التي كانت محجة انظاره، استقبله حاجب الغرباء فيها، ويدعىٰ الشريف «المازنداري» واصطحبه الىٰ دار الضيافة: حيث أعطي مالاً وفيراً ومؤناً بقدر مايحتاج إليه، وقد انتهز ابن بطوطة فرصة غياب السلطان وعمل علىٰ زيارة المدينة الهندية الكبيرة المساحة والعمران؛ تنقسم الىٰ أربعة أقسام يحيط بها سور واحد. «والسور المحيط بمدينة دلهي لايوجد له نظير، عرض حائطه احدىٰ عشرة ذراعاً، وفيه بيوت يسكنها حفاظ الابواب، وفيها مخازن للطعام ويسمونها «الأبنارات، ومخازن للعدد. . ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الىٰ آخرها. وفيه طبقات مفتحة الىٰ جهة المدينة يدخل منها الضوء، وأسفل هذا السور مبني بالحجارة، وأعلاه بالآجر، وابراجه كثيرة متقاربة). وقد لفت انتباهه استعداد المدينة لاستقبال سلطانها، بموكب يتقدمه مشاة من عبيده وخلفهم فيلة يرمي من فوقها بالدنانير والدراهم فيلتقطها الناس، وآخرون يوزعون آنية مملوءة بشراب ماء الورد. وانتظر ابن بطوطة فترة وجيزة تعرف خلالها علىٰ عادات وتقاليد استقبال سلطان دلهي، محمد بن طغلق المعروف بمحمد شاه بروارة: ثم لم يلبث أن تقدم لزيارته، فكانت مناسبة لينقل لنا صورة رائعة ودقيقة لقصر هذا السلطان الكبير من جهة، وصورة واضحة لعادات وتقاليد شعوب تلك البلاد اثناء زيارتهم لسلطانهم من جهة اخرى. وقد حظي ابن بطوطة بمكانة مرموقة لدىٰ السلطان، حيث عينه قاضياً في عاصمته «دلهي»، وعضواً في «سفارة» جهزها سلطان الهند الىٰ الصين. لكن ابن بطوطة لم

يوفق في الوصول الى الصين براً عن طريق قندهار، فاضطر الى الابحار من قاليقوت الى جزر الملديف (جزائر ذيبة المهل)، وهناك أمضى زهاء عامين شغل خلالها مرة أخرى منصب القضاء. إلا انه نتيجة لبعض أحكامه القضائية بحق بعض النافذين في تلك الجزيرة أخطر الى مغادرتها متجهاً نحو جزيرة سيلان التي ارتبط بها ـ كما يقول ابن بطوطة ـ أقدم القصص عن آدم أب البشر. (وآثر القدم الكريمة [قدم آدم] في صخرة سوداء مرتفعة، بموضع فسيح، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً، وطولها أحد عشر شبراً، وأتى اليها أهل الصين قديماً، فقطعوا من الصخرة موضع الابهام يقصدونها من أقصى البلاد. وفي الصخرة، حيث القدم تسع حفر منحوتة، يجعل الزوار فيها الذهب والياقيت والجواهر، فإذا وصل الفقراء اليها تسابقوا في أخذها).

واسترعى انتباه ابن بطوطة كثرة احجار الياقوت التي تستخرج من أرض الجزيرة، حيث يتحلى بها جميع نسائها على شكل قلائد ويجعلنه في ايديهن كذلك وارجلهن عوضاً عن الأساور والخلاخيل.

ومن سيلان، انتقل ابن بطوطة الى البنغال [البنجالة] والهند الشمالية واندونيسيا، ومن هناك اتجه الى كانتون بالصين حيث كان يردد وهو في طريقه الى هذه البلاد ماروي عن الرسول الكريم (اطلبوا العلم ولو في الصين). وإذ كانت السفينة تقترب من الشواطيء الصينية، ماراود ابن بطوطة أي شعور بالخوف أو الرهبة، فقد تذكر ترحيب أهل الصين بالمسلمين، ولاسيما التجار منهم الذين كانوا أول من وصلوهم بالدين الاسلامي ودولته. وقد وفد أولئك التجار المسلمون على الصين في عهد دولة تانج التي حكمت الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧م، وتناقل أهل الصين عن أولئك التجار أنهم يعبدون الله، وليس لهم في معابدهم تمثال ولاصنم ولاصورة، وانهم لايأكلون لحم الخنزير ولايشربون الخمر، وانهم يحرّمون الذبائح التي لايذبحونها بأنفسهم. وقد حصل أولئك القوم من السلطان على إذن بالاقامة في ميناء كانتون، وبنوا دوراً جميلة تختلف عن مباني أهل الصين. وسرعان ماأصبح أعضاء الجالية الاسلامية أغنى الناس في الصين، وكثر الوافدون عليهم من بني دينهم، واستقر آخرون منهم في ميناء خانغو جنوب مدينة شنغهاي الحالية. وحرصت السلطات الصينية على منح المسلمين هناك امتيازات كثيرة لما لهم من أثر كبير في اقتصاديات البلاد؛ من ذلك مثلاً حقهم في اتخاذ قاضٍ مسلم من بينهم، يؤمهم في الصلاة، ويحكم في المشاكل التي يتعرضون لها، وحقهم في الحصول على جوازات تتيح لهم التجارة مع أهل الصين داخل البلاد. وتابع التجار المسلمون نشاطهم حتى وصلوا الى كوريا، وفي هذه الأخيرة كان لهم نشاط واسع حيث تدخلوا في الشؤون السياسية لهذه البلاد. ومما ساعد على هذا التدخل السياسي: العلاقات الحسنة بين حكام الصين وخلفاء الدولة الاسلامية، ومن ثم الاستعانة بخلفاء المسلمين في التغلب على مشاكلهم الداخلية، فعلى سبيل المثال: استنجاد حاكم الصين سوتسنج عام ٧٥٦م بالخليفة المنصور العباسي للدفاع عن عرشه ضد بعض الثوار؛ فأمده الخليفة بفرقة من الجنود المسلمين، آثرت البقاء في الصين بعد انتهاء مهمتها. وظلت أحوال الصين تزداد قوة باتصالها بالمسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادي، قبيل زيارة ابن بطوطة لها بزمن قصير؛ إذ دخل المغول بلاد الصين، وتحولوا الى الدين الاسلامي، وفتحوا بذلك الطريق أمام المسلمين من سائر الأجناس للدخول اليها؛ فاستقر عدد من المسلمين في مدنها الهامة بشكل نهائي، وغدا لهم كيانهم الخاص. وجاءت زيارة ابن بطوطة الى الصين وتجواله في مدنها سجلاً حافلاً عن حياة المسلمين، ونشاطهم في هذه المرحلة المبكرة من اتصالهم بالشرق الاقصى. وفي طريق عودته استقل سفينة من سومطرة الى ظفار جنوبي الجزيرة العربية فبلغها في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.

وهكذا، ومرة أخرى، نرى ابن بطوطة ضارباً في فيافي العراق والشام ومصر، ليؤدي فريضة الحج للمرة الرابعة، ثم يكمل طريقه الى فلسطين، فشهد الطاعون، ذلك الوباء المخيف الذي اجتاحها عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وبعد ذلك بقليل، وفي نيسان عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ألحّت عليه رغبة جامحة في الرجوع الى وطنه، ولعل تواتر الأخبار بازدهار مراكش في عهد السلطان أبي عنان من بني مرين، قد مكّن هذه الرغبة في نفسه، فاتخذ طريق العودة ماراً بمصر وتونس، حيث واتته فكرة زيارة جزيرة سردينية «سردانية» وفي اثناء هذه الرحلة، تعرّض مرتين لهجوم لصوص البحر «القراصنة». وعلى الرغم من هذا، فقد حالفه التوفيق، فتقدم في طريقه الى فاس ماراً على تنيس وتلمسان، وتازان، التي علم فيها بخبر وفاة أمه. حتى بلغ بلاط السلطان

ابي عنان في تشرين الثاني عام ١٣٤٩م/٧٥٠هـ وهناك انتهى به المطاف، وقويل بما هو أهل له من التقدير والاجلال. بيد أن تجواله لم يقف عند هذا الحد، فقد بقي قطران إسلاميان لم يكن زارهما بعد، احدهما دولة غرناطة التي وصلها بعد زيارة قبر والدته في طنجة، لكنه لم يمكث في هذه البلاد طويلاً، لأن المسلمين كانوا يعانون اخطر مرحلة في حياتهم، وهو انسحابهم أمام المناوئين من أهل الأندلس، الأمر الذي دفعه للعودة تاركاً وراءه هذا القطر الهام من دار الاسلام.

عزم ابن بطوطة بعد عودته من الاندلس على القيام بزيارة بلاد المسلمين في السودان الغربي، حيث ترك مدينة فاس بعد أن استأذن السلطان ابي عنان في شتاء عام ١٣٥١م لزيارة السودان، وقد نظم سفرة الى سجلماسة الواقعة جنوب شرقي الاطلسي، والتي لم يبق منها سوى الأطلال، كانت حينذاك معبراً حدودياً مهماً يربط الحدود الجزائرية المغربية بمملكة مالي، التي لم يكن مرّ على اعتناقها الاسلام عهد طويل. وبعد خمسة وعشرين يوماً من السفر وصل الى منجم الملح الكبير، الموجود في قرية «تعازا»، إذ يأتي السود من جميع أنحاء السودان لشراء هذا الملح بأسعار مرتفعة نسبياً. فقد كانت السبيكة في «ايوالاتن» مثلاً، المنفذ الجنوبي لموريتانيا حالياً تساوي من ثمانية الى عشرة مثاقيل [أي أونصة ذهب، أقل بقليل من خمس غرامات]، وترتفع لتساوي من عشرين إلى ثلاثين مثقالاً، واحياناً تصل إلى اربعين مثقالاً في عاصمة مالي. ويستعمل السود الملح بمثابة النقود! كما هو شأننا اليوم مع الذهب والفضة. وقد فقدت (ايوالاتن) تقريباً كل أهمية تجارية اليوم بعد أن كانت عام ١٣٥٢م ساحة تجارية نشطة، ومرفأ مدخل امبراطورية مالي؛ وفيها أدهش ابن بطوطة ببعض العادات والمفاهيم الاجتماعية، كاختلاط النساء بالرجال، الى درجة أن احدهم يدخل داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك، رغم تمسك أهاليها بالاسلام ومواظبتهم على تأدية الصلوات. ويعزو ابن بطوطة ذلك الى ان هذه المنطقة لم تفهم الاسلام فهماً صحيحاً؛ لقلة الدعاة والمتعلمين وهذه الظاهرة مالبثت أن تبدلت مع مواصلة مسيره نحو الشرق حيث يؤكد ابن بطوطة على التزام أهالي «زاغة» بآهداب الدين. والواقع ان هذه المنطقة التي تقع على قلاع النيجر الشمالي الغربي مقر مملكة «تكرور» كانت أول معقل للاسلام بالسودان في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان لها اتصال بمصر، ولاسيما انها كانت تبعث بأبنائها الى الأزهر للتفقه في شؤون الدين.

وفي مالي أقامت الجاليات الأجنبية لابن بطوطة احتفالاً كبيراً، وان دلت هذه الظاهرة على شيء فهي تدل على التقدم الحضاري الذي وصلت إليه مملكة مالي، نتيجة تفاعل الحضارات المصرية والمغربية والسودانية وانصهارها في بوتقة اسلامية، لتشكل حضارة متطورة لأهالي مالي تبرز بشكل جلي في وصف ابن بطوطة المفصل للمناسبات الدينية والوطنية التي يشارك فيها الحكام والمحكومون على حد سواء. وفي طريق العودة، بعد أن زار ابن بطوطة معادن النحاس بـ (تكدا)، بدأ في ١٢ أيلول عام ١٣٥٣م/٧٥٤هـ رحلة شاقة، استغرقت بضعة أشهر في صحبة قافلة من تجار الرقيق، اخترق خلالها هضبة «هكار» Ahaggar بعد أن مرّ في طريقه على واحة (أغدس Agdes) ثم عبر جبال أطلس شتاءً في ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس في نهاية عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م. وفي هذه المدينة المغربية أمضى البقية الباقية من حياته، وهي نيفٌ وعشرون عاماً لم يقم خلالها بأي تجوال حتى وافته المنية في عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م"[1].

العراق في رحلة ابن بطوطة

زار ابن بطوطة العراق زيارتين اثنتين، وسلك فيهما طريقين مختلفين أولهما، حين قدومه من مكة المكرمة سنة ٧٢٦هـ، وأما الثاني، فحين عودته من الصين، فجاوة، فالخليج العربي، فالبصرة وبغداد سنة ٧٤٨هـ، وقد وفق رحالتنا في رحلته الثانية لزيارة قدر طيّب من المدن لم يزره في زيارته الأولى كالانبار وهيت وحديثه وعانه وأثنى على حالتها المعاشية ومنتوجاتها الزراعية حيث يقول:

«من أحسن البلاد وأخصبها.. كأنّ الماشي فيها في سوق من الاسواق». لكن الزيارة الأولى هي التي تضمنت معلومات ذات جدوى وخطر. وتعد رحلة ابن بطوطة الى العراق أول رحلة يقوم بها رحالة بعد دخول المغول وعبثهم في بغداد، لكن السنوات السبعين التي فصلت بين سقوط بغداد ودخوله

(٦٥٦ ـ ٧٢٦هـ) كانت كفيلة بإعادة الرخاء الى البلاد، لاسيما بعد أن دخل السلطان محمد خدابندة في الاسلام، وأخوه قازغان، وكان حاكم بغداد ابو سعيد بها درخان بن محمد خدابندة، فعمّ على ايديهما الخير والرخاء (واذا كان المغول قد غلبوا المسلمين فإن الاسلام غلب المغول) كما يقول ابن بطوطة. ومما تجدر الاشارة إليه فضائل حاكم العراق آنذاك (أبو سعيد)، اذ يحدثنا عن الركب الذي ارتحل به ومافيه من نواضح كثيرة لأبناء السبيل، وجمال لرفع المال للصدقة وأدوية وأشربة وسكر، لمن يصيبه المرض، والطعام الذي يطبخ في قدور عظيمة (الدسوت) لإطعام ابناء السبيل، وجمال تحمل من لاقدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه...

ان الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في جولته داخل العراق هو طريق نظيرة، مع امير ركب العراق، وكان يدعى محمد الحويج، فقصد النجف في ٢٠ ذي الحجة سنة ٧٢٦هـ، لكنه سرعان مافارق الركب الذي قدم فيه، فاتجه جنوباً فشرقاً ثم شمالاً. والرحلة تنبيء عن انه أمضى عاماً منذ خروجه من مكة المكرمة والى عودته اليها ثانية. إذ وَدَّعَ النجف الى واسط فالبصرة ومنها الى اصبهان وشيراز، ثم عاد الى الكوفة والحلة فكربلاء فبغداد ليخرج الى تبريز، ثم يعود ثانية، ويتوجه الى الموصل وماردين، ويعود ثالثة الى بغداد، ليجد الحاج في أهبة الرحيل، فيصحب ركبهم بأمرة أميرها معروف خواجة. وقد زار ضمناً عدداً من المدن واطلع على احوالهم ومنها: القادسية وبغداد وسامرا، وتكريت والموصل وغيرها. غير أن بغداد (دار السلام)، قد حظيت بأكبر نصيب من الحب لدى ابن بطوطة، ومنذ أن دخل العراق احبَّ قصد بغداد، والرحلة تُستهل بنص قول ابن جبير الذي يضمنّه ابن جُزَّى في الرحلة، وفيه اشارة الى النوازل والنكبات التي حلّت ببغداد... وأبعاد هذه النوازل وأثرها بقلّة الزوايا التي يطعم بها الطعام. ثم ينتقل الى الحديث عن جسري بغداد، وهما على نحو جسر الحلة ويذكر اتصال الناس في العبورعليهما، فهم في ذلك في نزهة متصلة، ويذكر المساجد الجامعة ببغداد، ويتكرر العدد الذي ذكره ابن جبير نفسه، فهي احد عشر، ثمانية بالجانب الغربي وثلاثة في الشرق، واما مساجدها ومدارسها، فيشير الى كثرتها الا انها خرجت. ويبدو أن التوسع العمراني كان يشمل المساجد لاالجوامع التي حرصوا على قلّتها، رغبة في اجتماع اكبر عدد من الناس في الجمعة وهو مايتحقق بقلّة هذه الجوامع. ويتوقف عند الجانب الشرقي من بغداد ليذكر مدرستيها، النظامية العجيبة التي يضرب المثل بحسنها وهي بأول سوق الثلاثاء، وأما المدرسة المستنصرية المنسوبة الى المستنصر بالله، فهي بآخر السوق، ويعرض لنا صورة عن المدرسة وتوزع فقهائها في مجالسهم وفق المذاهب التي يدرسونها.

ويتحدث ابن بطوطة عن حمامات بغداد البديعة الصنع، إذ هي مطلية بالقار مسطحة به، يخيّل للرائي انه رخام أسود الى نصف الحائط، والنصف الأعلى مطلي بالجص الأبيض الناصع.. فهي تلفت النظر لما اجتمع فيها من الضدّين المتقابلين في الحسن. وفي كل خلوة حوض من رخام فيه انبوبان يجريان بالماء الحار والبارد، والداخل للحمام يُعطى ثلاث فُوَط... (ولم أرَ هذا الاتقان كلّه في مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها في ذلك).

واذا ماتوقفنا عند أوصاف ابن بطوطة لمدن العراق وجدناه فيها على جانب من الدقة، وهو لايتناقض مع المعلومات التاريخية المتوفرة عندها، اما هذه المدن فهي:

١ ـ النجف:

وهي اول مدينة تستقبل ابن بطوطة من مدن العراق، (مدينة حسنة في ارض فسيحة صلبة، من احسن مدن العراق، واكثرها ناساً، واتقنها بناءً). وفي ذلك إشارة الى تركز القاطنين فيها. ويصف اسواقها بالحسن والنظافة، وتنوع تلك الاسواق على نظام ونسق بحيث افرد لكل حرفة او صناعة سوق خاص. ولايغفل الوقوف عند المشاهد والآثار الاسلامية، فيقدم لنا صورة واضحة لمشهد الامام علي (رض).

٢ ـ واسط:

وفي طريقه من النجف الى البصرة، يمر بواسط فيحدثنا عنها: (حسنة الاقطار، كثيرة البساتين والاشجار). ويبدو انها كانت مركزاً حيوياً لتعليم القرآن الكريم وتجويده، وفيها نحو ثلثمائة خلوة ينزلها الغرباء لتعليم القرآن الكريم.

٣ ـ البصرة:

(مفسحة الارجاء، موقفة الأفناء، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة... وليس في الدنيا اكثر نخلاً منها). وحين

يعرّج الأبلّة بقول:

(وبينها وبين البصرة عشرة اميال في بساتين متصلة، ونخيل مظللة عن اليمين واليسار والبياعة في ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك، والتمر واللبن والفواكه). وقد عرفت البصرة بكبار النحاة واللغويين، واليها انتهت رئاسة النحو، لكن الرحالة ابن بطوطة انكر على خطيب الجمعة كثرة لحنه! وشكا ذلك الى القاضي فاعتذر عنه بعدم وجود علماء في النحو! وذلك مايدعو الى التفكير والتدبر، فسبحان مغير الاشياء ومقلّب الامور!

٤ ـ تكريت:

وفي طريقه الى الموصل يكون مرور ابن بطوطة بتكريت، فيصفها بالسعة والكبر، وكثرة الجوامع وجودة الاسواق، وانها عتيقة ذات سور.

٥ ـ الموصل:

مدينة عتيقة، وتتميز بكثرة الخصب، وقلعتها معروفة بالحدباء عظيمة الشأن، شهيرة الامتناع... والبلد محاط بسورين اثنين محكمين، ويحدثنا عن ربضها الكبير الذي يحتوي الجوامع والحمامات والفنادق والاسواق، ويذكر مشهد الموصل النبي جرجيس والنبي يونس. ومن مظاهر المدينة التي سجلها مارواه عن جامع الموصل، وان به شبابيك حديد تدور ومساطب في النهاية من الحسن والاتقان.

٦ ـ سنجار:

واذا ماانتقل ابن بطوطة الى مدينة سنجار ذكر خيراتها، اذ هي كثيرة الاشجار والفاكهة والعيون والانهار.

وابن بطوطة معني في رحلته بوصف طبائع الناس واخلاقهم، وهو يسوق ابرز صفات الاقوام المميزة لمدن العراق التي زارها، فمن أهل النجف يقول: «وحاكمهم نقيب الاشراف، وأهلها تجار يسافرون في الاقطار، وهم أهل شجاعة وكرم ولايضام جارهم» وتلك الاوصاف جاءت عن معاناة وتجربة لاعن سماع وتخمين ذلك لأن ابن بطوطة سحبهم في الاسفار فحمد صحبتهم، وحين ينزل واسط، ويختلط باهلها يتبين له انهم اعلام يهدي الخير مشاهدهم، وتهدى الاعتبار مشاهدتهم، وهم خير اهل العراق على الاطلاق! ولعل حكمه هذا بسبب ان اكثرهم يحفظون القرآن الكريم، ويجيدون تجويده، وهو ولاريب اساس العلوم والاخلاق.

واما أهل البصرة، فلهم مكارم الاخلاق، وأداء لحقوق الغريب، وكذلك الشان بالنسبة لاهل تكريت فهم معصومون بحسن الاخلاق، وهذه الصورة تستمر مقرونة باهل العراق من جنوبه الى شماله، فهو يصف اهل الموصل بقوله: (لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه). كذلك يصف اهل سنجار وجزيرة ابن عمر بالفضل والكرم، واكثر احكامه نابعة عن مخالطته لأبناء تلك المدن ومعاشرته اياهم عن كثب[٣].

وعند زيارته لقبر الولي أبي العباس السيد احمد الرفاعي في قرية (ام عبيدة)، على مسيرة يوم واحد من (واسط) يذكر ابن بطوطة ان عرب بني اسد كانوا يقطنون تلك الجهة، وهنا يذكر الذكر الذي اقيم بعد صلاة العشاء: (ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف، واخذ الفقراء في الرقص ـ [اي الرقص المولوي = الصوفي] ـ ثم صلوا المغرب، وقدموا السماط، وهو خبز الارز والسمك واللبن والتمر، فاكل الناس ثم صلوا العشاء الآخر واخذوا في الذكر، والشيخ احمد فوجك حفيد ولي الله ابي العباس الرفاعي قاعد على سجادة جدّه. ثم اخذوا في السماع، وقد اعدوا احمالاً من الحطب فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون، ومنهم من يتمرغ فيها، ومنهم من يأكلها بفمه حتى اطفئوها جميعاً، وهذا دأبهم، وهذه الطائفة الأحمدية [= تسمى اليوم الرفاعية] مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحيّة العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه)[٤].

ويستكمل رحالتنا (ابن بطوطة) الصورة المتعلقة بطبائع العراقيين، فيحدثنا عن عاداتهم واعرافهم، في غير موضع من رحلته، وكثير من هذه الاشارات يؤصل ماهو موجود منها في ايامنا هذه، وهي جوانب تفيد المعنى بدراسة الطوابع الشعبية للمجتمعات والامم.

لقد حدثنا ابن بطوطة عن (ليلة المحيا) خلال مروره بالنجف وهي الليلة التي توافق السابع والعشرين من رجب، حيث يحيها الناس بذكر الله والعبادة. ومارواه عنها سمعه من الثقات، وذكر لنا ماشاع عند اهل الكوفة من عادات واعتقاد الناس في الاولياء والصالحين وتقديم النذور لهم، وقدم لنا وصفاً عن الاحتفالات الدينية لبعض الطرق الصوفية والاعمال الخارقة للعادة التي قاموا لها... وسجل لنا بعض الخرافات والاعتقادات

الساذجة خلال حضوره مشاهد بعض الصالحين في البصرة. ومن جملة هذه الأوصاف تتضح صورة مشرقة وصفحة ناصعة لأبناء مدن العراق التي زارها ابن بطوطة، اذ تشتمل على خير الخصال وافضل السجايا، وشهادته تؤكد نفاسة معدنهم ورفعة مقامهم وان ازدهار الحضارة في وادي الرافدين ترك آثاره وبصماته المتميزة في ابنائه القاطنين فيه.

ويستدعي الاشارة إليه تعقيبات ابن بطوطة وتعليقاته حول اصل عدد من الاعلام التي وردت خلال حديثه، فعن السلطان التتري ـ حاكم العراق ـ الذي اسلم (محمد خدا بنده) يذكر الاختلاف في ضبط اسمه و (خدا) بالفارسية اسم الله عز وجل و (بنده) غلام او عبد او مافي معناه. وقيل (خربنده) و (خر) بالفارسية (الحمار) ومعناه يكون ولد الحمار. ويستطرد في ذكر هذه الآراء في اصل اسمه واصل اسم اخيه (فازغان) وهو القذر، لأنه ولد لما دخلت الجارية ومعها قِذر.

وعن (سُرّ مَن رأى) يذكر انها تسمى (سامراء) وكذلك (سام راه) أي الطريق السامي[٥].

فكرة الكتاب

في مدينة فاس، الواقعة على ملتقى الطرق المؤدية الى الرباط وطنجة ومراكش، والتي كانت عاصمة بلاد المغرب لفترة طويلة من الزمن، القى الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله. . . المعروف بـ (ابن بطوطة) عصا التسيار عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م عائداً من بلاد الله الواسعة الى دار السلطان ابي عنان احد افراد السلالة المرينية، حيث اخذ يقصّ من اخبار معمورة قصصاً اثارت احياناً دهشة السامعين من معاصريه، فانقسموا بين مصدّق لها وبين مكذّب؛ لافرق في ذلك بين متعلم وجاهل[٦] واعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من احاديث اسفاره، فأمر كاتبه محمد بن جزي الكلبي أن يدون مايمليه عليه هذا الرحالة. وتولى ابن جزي كاتب السلطان رواية الرحلة وترتيبها واضافة بعض الاشعار إليها وتحقيق بعض اجزائها، مستعيناً بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر، ولاسيما رحلة ابن جبير. ثم سماها (تحفة النُظّار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار)، وفرغ منها سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م وختمها بعبارة اجزل فيها الثناء على ابن بطوطة، ولم ينس مولاه السلطان، فافتخر بان ذاك الرحالة اختار الاستقرار في دياره دون غيرها.

قال ابن جزي: «انتهى مالخصته من تقييد الشيخ ابي عبد الله محمد ابن بطوطة اكرمه الله ـ ولايخفى على ذي عقل ان هذا الشيخ هو رحال العصر. ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد. ولم يجعل بلاد الدنيا رحلة. واتخذ حضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته، إلا لما تحقق ان مولانا ايده الله أعظم ملوكها شاناً، وأعمهم فضائل، واكثرهم إحساناً، واشدهم بالواردين عليه عناية، وأتمهم بما ينتمي إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى؛ لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة، التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً»[٣].

ويبدو أنه كان للسلطان أبي عنان ـ كما ذكرنا ـ الفضل في ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة، فهو الذي عثر له على «محرر أدبي» أن صحّ هذا القول. وتشير قرائن الأقوال الى أن رحالتنا رغماً من ولعه بالقصص، فإنه لم يحس انجذاباً شديداً نحو الكتابة. أما كيف خرجت فكرة الكتاب الى الوجود، فيتضح ذلك جلياً من ألفاظ المحرر، فهو في كلامه عن ازدهار فاس في عهد أبي عنان يقول:

(وكان ممن وفد على بابها السامي وتعدّى أو شال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوّاب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف بالبلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبراً وطوي الأمصار مختبراً وباحث فرق الأمم وسبر سِيَرَ العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا. . . ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ماشاهده في رحلته من الأمصار وماعلق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، فأملى من ذلك مافيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة افاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزي الكلبي. . . ان يضم أطراف ماأملاه

الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرق فامتثل ماأمر به مبادراً وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية لغرض منه صادراً، ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد الى قصدها موضحة المناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وضعه ولم أخِلّ بأصله ولافرعه وأوردت جميع ماأورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرّض لبحث عن حقيقة ذلك، ولااختبار على أنه سلك في أسناد صحاحها لوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المُشكِل من أسماء المواضع والرجال بالشّكْل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت مأمكنني شرحه من الأسماء الأعجمية لأنها تلتبس بعجميتها على الناس ويخطيء في فك مُقفّاها معهود القياس».

وبعد هذا العرض يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بطوطة، ليس من تصنيفه، بل يمثل صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب ابن جزي، وقد يبدو ذلك في بعض ماجاء فيها: «... وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، الذي رويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالاسناد، وشُهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد، وتحلت الأيام بحلى فضله، ورتع الأنام في ظل رفقه وعدله...» ولايزال موجوداً بالمكتبة الأهلية بباريس قسم من الكتاب بخط يد الكاتب نفسه. ويمكن الحكم على الطابع العام للكتاب من ألفاظ ابن جزي التي استشهدنا ببعضها آنفاً. ومن تحليل شخصيته كأديب، فهو على مايبدو من أدباء عصر التدهور، وقد بقي لنا من آثاره ترجمة لسيرة حياته، ومصنف في نسب النبي (ص). وعلينا أن نأخذ دائماً في اعتبارنا جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة بحيث أننا إذا ماقسونا في حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألّا ننسى ان كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزي[٨].

من هنا، فاستعراضنا للرحلة ربما يمس قبل كل شيء الاطار العام للكتاب الذي هو من وضع ابن جزي، فهو يفتقر في كثير من الأحيان الى التناسب والتناسق؛ ويمكن من خلال المقاطع التي اطلعنا على معظمها، ان نحكم على الاسلوب المتكلف الذي لجأ إليه ابن جزّي، ومبله الواضح الى السجع والاطناب، وهي على أية حال من سمات عصر التدهور، ومن حسن الحظ ان اسلوب الكتاب لايسير في جميع صفحاته على وتيرة واحدة، إذ كثيراً ماتتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي تميل احياناً نحو لغة المحادثة، محتفظة في ذات الوقت برزانتها وغناها بالتفاصيل فوق ماتتميز به من الحيوية الدفاقة والعاطفة الجيّاشة. والى جانبها يبدو أسلوب ابن جزي ثقيلاً، يغلب عليه الحشو والتكلف. كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة الى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة، وتزويقها بصورة تجعلها أقرب الى النصوص الأدبية، وهو يقتطف من اشعار مختلف الشعراء، أحياناً دون مناسبة تستوجب ذلك، وبلا ادنى صلة تربطها بموضوع كلامه وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية اكثر؛ ولعلك تقف الى جانبنا من خلال الاطلاع على أبيات الشعر التي ذكرها في سياق وصف ابن بطوطة لبلدة صفاقس ولمدينة قابس، إضافة الى الشعر الذي ذكره ابن جزي، حيث تحدث ابن بطوطة عن بلدة تنيس حيث قال: (وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً، وهي الآن خراب). وذلك الشعر جاء على لسان ابو الفتح بن وكيع:

قم فاسقني والخليج مضطرب
والريح تثني ذوائب القصب
والجو في حلة ممسكة
قد طرزتها البروق بالذهب

في تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين في سياق عرضه دون أن يهتم بالاشارة الى اسمائهم. ومن الاجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة والعلم بالكتب، فهو رجل يحب القصص، لكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو، ومن المشكوك فيه ان يكون هو المسؤول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير في وصف الشام وبلاد العرب دون أن يشير إلى المؤلف، إلا أنه من الطبيعي أن يكون ابن جزي الغرناطي الأصل على معرفة جيدة بالاسلوب المصقول لمواطنه الاندلسي ابن جبير، خاصة وأن الأخير كان بوجه عام محبباً الى قلوب أهل بلده، فلا غروّ أن أراد ابن جزي تحلية مؤلفه بإضافة تلك القطع إليه.

والحق، لقد كان لدور ابن جزي في تحرير الكتاب هذا آثار بعيدة، فقد جهد في أن يضفي على المصنف طابعاً فنياً متماسكاً لعله لم يعرف في الاصل اطلاقاً. ومن الواضح ان ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحي من الاعتراف بأنه قد نسي اسم موضع ما او اسم شخص، مثل ذلك القاضي الذي نزل عليه بالشام، او تلك المدينة التي مرّ عليها في طريقه الى تمبكتو؛ وأغلب الظن أنه لم يدوّن مذكرات منظمه، واذا كان قد دوّن شيئاً فلا ريب في أنه قد اضاعه خلال تجواله، أضف إلى هذا أنه لم يهدف إخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره، بل اكتفى بأن يقص على سامعيه حوادث معينة وقطعاً متفرقة منها. لذا، فحين دعت الحاجة الى الربط بينها في رواية متتابعة، فإن المحرر بذل جهداً ليس بالقليل ليخرج من القصة بما استطاع المؤلف أن يتذكره، سواء كان ذلك عن طريق توجيه الاسئلة أو ربما استحثه بوسائل أخرى. ولم يكن ابن جزي على معرفة بالبلاد التي تحدث عنها ابن بطوطة. لذا فليس غريباً أن يقع في أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة في وحدة متماسكة، ويصدق هذا بصورة خاصة على افريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه الى مصر، فدلائل الأحوال تشير الى ان ابن بطوطة كان قد نسي وصف طريقه تماماً، وذلك لبعد الزمن الذي ينيف على ربع قرن؛ ومن الملاحظ ان وصف هذا الطريق مختصر للغاية لدى مقارنته ببقية وصف الرحلة. اما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى، فيمكن رده الى ان ابن جزي الذي حاول أن يستخلص صورة متكاملة الجوانب إزاء العدد الكبير من أسماء الأماكن التي يذكرها ابن بطوطة، وكان هذا الاخير قد قطع على نفسه عهداً بألاّ يأخذ طريقاً واحدة اكثر من مرة واحدة، ومن ثم، فإن تحديد طريق سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التي سلكها. وعلى نحو ماأراد المحرر، فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته في بعض الاحيان دقة خيالية لاتمت للحقيقة بصلة، وذلك فيما يتعلق بتحديده للمسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له؛ كما أنه من الصعب مثلاً التصديق بأن عدداً من رحلاته الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد في غرّة المحرم من كل عام.

ويعتقد ان ابن جزي لم يمس جوهر القصص نفسها، لذا فلا يزال يتظر إجابة شافية حتى الآن، سؤال حائر، هو إلى اي حدٍ يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعنا في اعتبارنا مدى فعالية العنصر الذاتي في هذا المجال. ولقد بدا هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة منذ لحظة رجوعه الى ارض الوطن، تماماً كما حدث مع ماركو بولو، بل إنه يمكن استشفاف لون من الحذر حتى عند ابن جزي نفسه، وذلك في قوله (واوردت جميع ماأورده من الحكايات والأخبار ولم اتعرّض لبحث عن حقيقة ذلك ولااختبار. . .).

وأخيراً، وفي القرن العشرين، نلحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد أخذ يكتسب الانصار يوماً بعد يوم. وتتمثل وجهة النظر الأخيرة في أن ابن بطوطة يعكس بدقة واخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما، وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك. ومن البديهي القول ان ابن بطوطة رجل مسلم خالص من أهل القرن الرابع عشر، ولكنه اكثر قرباً الى المعتقدات الشعبية منه الى العقيدة الرسمية؛ أعني المعتقدات السائدة في المغرب؛ وقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له المسائل المتعلقة بالعبادة والأولياء والدراويش، فاعتقد في صحة الكرامات التي حكيت له أو التي حدثت له هو نفسه، ولعله من اليسير تفسيرها على ضوء الانخداع النفسي والسلوك الجماهيري الذي شهده بنفسه في الهند أوردها ببساطة الى المبالغة التي ينساق اليها بسهولة جميع الرحالة في كل العصور. فإن اسقطنا من حسابنا هذه العوامل فإن روايته بوجه عام جديرة بالثقة أو أنه على الأقل قد روى مااعتقده الحق[٩].

أخطاء ابن بطوطة

أما الاخطاء التي وقع فيها ابن بطوطة فليست بالقليلة، ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التي زارها، وهو فيما عدا العربية كان ملماً ببعض الفارسية وربما التركية، كذلك إلاّ أن معرفته بلغات وقعت في الواقع عند حدّ ألفاظ معدودة كان يجب أن يعرضها من حين لآخر، ولكن التوفيق جانبه في معظم الأحوال. وفي اتصالاته بالسكان المحليين، لم يكن من النادر ان يلجأ الى الاستعانة بمترجم ما، ولايخفي بالطبع النتائج التي تترتب على هذا، إذ كثير ماتسرب الخطأ الى أسماء البلاد الأجنبية التي يذكرها أثناء سيره، كما أنه

ليس من المستبعد أن يختلط لديه ترتيبها؛ أضف الى هذا ان التتابع الزمني للرحلة غير منتظم، وأن التواريخ تبدو وكأن المحرر قد وضعها خبط عشواء؛ هذه المجموعة من الأخطاء نفسها وجدت طريقها الى الاستطرادات التأريخية. لكل هذا، فإنه يجب ألاّ يغرب عن الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالماً نقّالة، بل اعتمد اعتماداً مطلقاً على ذاكرته، وهو كان يتمتع حقاً بذاكرة ممتازة شأنه في هذا الشأن جميع ممثلي الثقافة العربية لذلك العهد.

وبعد، فيجب الاعتراف بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أي في التواريخ) والمكانية (أي في المواضع الجغرافية) ضئيل لديه عند مقارنة ذلك بالعدد الكبير من الوقائع التي يوردها. وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة الى أقسام معينة من رحلته؛ كوصفه للقسطنطينية وحكاياته عن الصين، أما عن الأولى، فقد كان اضطراب التواريخ سبباً في حدوث بعض الخلط لديه، ولكن على الرغم من هذا، تَمّ الاعتراف في الآونة الأخيرة بأن وصفه للمدينة نفسها يتسم بطابع الصحة، ولايمكن أن يتنج إلاّ عن معرفة مباشرة بها، فضلاً عن أنه يكشف في هذا الصدد، كما هو الحال دائماً، عن قوة ملاحظة خارقة. ولاتزال زيارته للصين مسألة مستعصية على الحل، حيث تجمع اكثر الأراء الى ان ابن بطوطة لم يزر الصين ـ كما يقول الدكتور محمد ترحيني ـ وقد وصل (فيران Ferrand) ـ وهو خبير في الأدب الاسلامي ـ عن الشرق الأقصى الى نتيجة مؤداها ان ابن بطوطة لم يزر الهند الصينية، كما لم يزر الصين، بل لفق روايته عنهما تلفيقاً دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة. ولما كان ابن بطوطة لايكشف بوجه عام عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافي، واذا ماسلمنا جدلاً بالفرضية القائلة بأن ابن بطوطة انما اعتمد في وصفه على القصص التي سمعها من الآخرين، فثمة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذه الفرضية، فمثلاً، من الصعب القول ان ابن بطوطة من غير أن يزور الصين قد وجد أن هناك مايضطره الى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل سبتة، ثم يذكر اسمه، كما يذكر أيضاً أنه قابل اخاً لذلك الشخص نفسه بالسودان الغربي. مما لاريب فيه أن الكلام يدور هاهنا عن شخصيات حقيقية كانت معروفة للكثيرين بمراكش عند رجوع ابن بطوطة اليها، فلم يكن بوسعه إذن أن يفكر في تعريض سمعته للثلب من أجل دافع تافه كهذا. ومن عهد ليس بالبعيد، توصل الباحث الياباني (يومامونو Yamamota) الى رأي حول رحلة ابن بطوطة في الشرق الأقصى فهو يقول: (إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده. حقاً ان وصفه المفصل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الغامضة، ولكنه لايخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيداً في المصادر الصينية وفي أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته).

ولاعتبارات ذات طابع عام أخضع (يامامونو) رواية ابن بطوطة عن بلاد طوالسي الغامضة لتحليل دقيق، ولنذكر عرضاً، ان رواية ابن بطوطة عنها قد جرت عليه سخرية بعض الباحثين، فالعلامة (يول Yule) مثلاً قال عنها في زمنه: (يجب البحث عن تلك البلاد في صفحات الأطالس التي تحتوي الخارطات البحرية مما رسمته يد الطيب الذكر القبطان غليفر)! وعلى الرغم من هذا، فإن عدداً من الباحثين ممن لم يهم التشكك الى الدرجة التي بلغها (يول) قد حاولوا العثور على هذه الجزر، فبحثوا عنها في جزيرة بورينو، وفيما بين اليابان وشامبا الواقعة في كوشين صين، وأخيراً وضعوها في تونكين؛ وقد ساق يامامونو حججاً قوية للتدليل على أن طوالسي انما هي شامبا بعينها التي كانت تقع بلا شك على الطريق بين الهند والصين. ولعل ابن بطوطة كان ضحية القصص الخرافية التي رواها له المترجمون المحليون عن تلك البلاد، وذلك لجهله باللغات المحلية[١٠٠].

ولعل بعض الاضطراب في اخبار ابن بطوطة يرجع الى أنه لم يدون رحلته بنفسه، وان ابن جزيّ عدّل في بعض أخبارها وغيرّ فيها بالحذف او الاضافة، بعد أن راجع طائفة من كتب الاسفار الأخرى، حتى جاءت بعض الأخبار بعيدة عن الدقة، ولاسيما أحاديث ابن بطوطة عن الصين، فاتهمه بعض النقاد بأنه لم يصل الى تلك البلاد كما قال في رحلته. ولكنا لانميل الى تأييد هذا الاتهام كل التأييد؛ لأن معظم تلك الأحاديث يدعمها مانعرفه عن رحلة ماركو بولو، الذي زار الصين أيضاً، ومكث فيها حوالي سبعة عشر عاماً، ثم أملى أخبار رحلته على كاتب آخر، وتوفي قبل أن يقوم ابن بطوطة برحلته الأولى بسنة واحدة. وقد أشار الدكتور حسين فوزي في كتابه (حديث السندباد القديم) (ص ١١٨ ـ ١١٩) إلى قصة نزول ابن بطوطة ببلاد طوالسي في المحيط الهادي ولاحظ أن وصفه تلك البلاد ـ ولاسيما نسائها ـ ذو صلة بأسطورة جزيرة النساء واسطورة الواق واق.

وقال إن تلك القصة من الحكايات التي دعت كثيراً الى التشكك من سفر ابن بطوطة الى بلاد الصين، وانه ليس ببعيد أن يكون حديثه عن «أودجا» ملكة تلك البلاد (نوعاً من السطو البري»، على قصة علقت بذهن ابن بطوطة عن مطالعاته التي في شرق الصين ونسبها الى نفسه).

ومهما يكن من الأمر، فإننا نشعر حين نقرأ الرحلة ان ثمة أجزاء يغلب عليها طابع المبالغة، ونرجح ان الرحالة خصب الخيال وأنه قد يكون مصداقاً للمثل المشهور في اللغات الأوربية القائل (ان القادمين من البلاد البعيدة لهم أن يختلقوا ماشاءوا، إذ لارقيب عليهم). ولكن ليس في هذا ماينقص من شأن ابن بطوطة ورحلته[11] فلكل جواد كبوة.

ابن بطوطة والاستعراب الأوربي

ان معرفة الاستعراب الأوروبي بابن بطوطة، جاءت متأخرة ومتأخرة بكثير عن معرفته بالادريسي، بل وحتى بأبي الفدا؛ ومن العبث البحث عن اسمه في موسوعة دربلو d'Herbelot المعروفة التي جمعت خلاصة المعارف في ميدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر، أو عند اشنو Schnurrer الذي سجل أسماء جميع المؤلفات التي ظهرت في عالم الاستعراب الى عام ١٨١٠م. وفي بداية القرن التاسع عشر فقط تمّ الكشف عن ابن بطوطة لأول مرة، ولم يتم ذلك بواسطة العلماء، ولكن بواسطة اثنين من الرحالة هما سيتزن Seetzen عام ١٨٠٨ وبوكهارت Burekhardt الذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربي حقّ قدره، واليهما يرجع الفضل في وصول مخطوطات موجز البيلوني إلى أوربا لأول مرة بمكتبتي غوطا Gotha وكمبردج Cambridge ١٨٢٩، وبهذا أصبح المتن في متناول ايدي العلماء. وكان أول من تناوله بالبحث العلامة موزغارتن Kosegarten وتلميذه إبتز Apetz فقدم الأول تحليلاً عاماً للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصحبها الترجمات والتعلقات بعنوان: «الرحلة الفارسية» و «الرحلة الملديفية» و «الرحلة الافريقية» عام ١٨١٨م. وتمثل خطوة إلى الأمام في دراسة ابن بطوطة تلك الترجمة الكاملة للموجز التي قام بها العلامة الانكليزي (لي) Lee الاستاذ بجامعة كمبردج عام ١٨٢٩، وعلى النقيض من هذا، فإن الترجمة البرتغالية التي قام بها (مورا) Moura ١٨٤٠ ـ ١٨٥٥ معتمداً في ذلك على مخطوطة حصل عليها بمدينة فاس في حوالي عام ١٧٩٧ لم تحظ بالعناية الكافية. أما أصل الكتاب؛ فإنه لم يتم العثور عليه إلا بعد فتح الفرنسيين للجزائر واستيلائهم على قسنطينة، واعقب هذا أن وجدت طريقها الى المكتبة الأهلية بباريس نحو من خمس مخطوطات، اثنتان منها كاملتان، وبعض منها بخط ابن جزي.

وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون، بعد محاولات عديدة وترجمة أقسام من الكتاب، من ان يخرجوا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية في أربعة أجزاء، بقلم المستشرقين «دفريمري Defremry» و «سانغنتي Sanguinetti ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨»، وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد من قبل العلامة «رنان Renan» الذي نشر بهذه المناسبة دراسة عن ابن بطوطة تتسم بالكثير من الحيوية. ولاتزال الطبعة الفرنسية في جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذي قامت عليه جميع الأبحاث عن رحلة ابن بطوطة، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة، ولكنها لم تخضع في مجموعها لفحص منظم، على الرغم من أنه لايمكن بالطبع أن ترضي في الوقت الحاضر متطلبات البحث العلمي المعاصر. غير أن الدراسات التي تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسائل متعلقة بذلك قد زاد عددها بصورة ملحوظة؛ ويمكن اعطاء فكرة عامة عن الرحلة بأجمعها من خلال الترجمات التي عملت لأقسام مختلفة من الكتاب، اعني بذلك ترجمات «مزيك Mzik» ١٩١١ وجب Gibb ١٩٢٩ المزودة بتعليقات موجزة، والتي يمكن ان تعد القول الفصل الى يومنا هذا في دراسة منافسة (ماركو بولو)[12] وان الاهتمام الذي قابلته به أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ليقف برهاناً على صدق قول ابن جزيّ في خاتمة الكتاب: «ولايخفى على ذي عقل أن هذا

الشيخ هو رحّال العصر ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد)[١٣].

ثم ترجمت الرحلة الى اللغة التركية منذ الستينات الأولى للقرن الماضي، وذلك في صحيفة «تقويم وقائع» التي كان يحررها كمال أفندي. أما الترجمة الكاملة التي قام بها الدامار محمد شريف، فقد ظهرت في ثلاثة أجزاء في نهاية ذلك القرن (١٣١٥ ـ ١٣١٩هـ/١٨٩٧ ـ ١٩٠١م). وللعلامة التركي محمد جودت (توفي عام ١٩٣٥) تعليق وافٍ على رواية ابن بطوطة عن تقاليد «الأخي» بآسيا الصغرى ومقارنته لذلك مع تقاليد «الفتيان» عند العرب[١٤].

الخاتمة

والرحلة بعد كل هذه التفصيلات موسوعة علمية ضخمة، فيها من المعلومات ماينتفع بها كل باحث، وفيها من الصور والأخبار ماتفي ثقافة كل معلم تستهويه مغامرات الرحلات وتستأثر باهتمامه أخبار الشعوب والأقوام والملل، وهي تستظل بانظمة متباينة وتحكمها اعداد من الحكام والسلاطين والأمراء، ووجدت في بعض التقاليد التي ورثتها سبيلاً للرضا وطريقاً للقبول بما وجدوا عليه آباءهم. ومن هنا كانت رحلة ابن بطوطة لها أثرها التاريخي والاجتماعي بما قدمته من وثائق، ولها بعدها الديني، لأنها تناولت الأمور في إطار هذا التصور، ولها أهميتها في عالم الرحلات، لأنها أوشكت ان تكون في عداد الرحلات الفريدة في غرابتها وجرأتها وماقدمته من ثمار نافعة[١٥].

وقد وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته، فخلّف لنا صوراً صادقة، كلها حياة للعصر الذي عاش فيه، ووصف لنا الاشخاص والجماعات وصفاً دقيقاً يجعلنا نشعر كأنهم بين ايدينا، وزار كل الدول الاسلامية في عصره، وقطع في أسفاره مسافة قدّرها بعض الباحثين بخمسة وسبعين ألف ميل، وهي مسافة لايظن أن رحالة غيره قطعها قبل استخدام البخار في وسائل السفر[١٦].

أما وضع ابن بطوطة في تاريخ الأدب الجغرافي فواضح للعيان، فهو لم يكن جغرافياً نقّالة أو من أصحاب الموسوعات أو من الأدباء، بل كان شخصاً عادياً للغاية، لايتمتع بأية مواهب خاصة، ولاتنعكس في رواياته أفكار عميقة أو ملاحظات دقيقة، وكثيراً مانلتقي لديه بأمثلة لتصديق اكثر الروايات الخيالية. وعلى الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ماشاهده بدقة وبساطة؛ وقد جعلت منه الأقدار جغرافياً، على الرغم منه إن صح هذا التعبير، وصنعت منه لوناً من الرحالة نادراً عند العرب، ذلك هو الرحالة الذي يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب في مجاهل الأرض استجابة لعاطفة لاتقاوم، ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب.

وابن بطوطة، على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب، لم يجمع مادته من صفحات الكتب، بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية، وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرّف عليها، عرضاً في خلال رحلاته. وقد شغل اهتمامه بالمواضع الجغرافية مكانة ثانوية بالنسبة لاهتمامه بالبشر، وهو بالطبع، لم يفكّر في ان يُجري أي نوع من البحث والتحقيق في مجال الجغرافيا، ولعله نتيجة لهذا، قد أصبح كتابه نسيج وحده كوصف للمجتمع الاسلامي والشرقي عامة في القرن الرابع عشر. فهو خزانة تحفل بمادة غنية لافي مجال الجغرافيا التاريخية أو تاريخ عصره فحسب، بل عن جميع حضارة ذلك العهد، فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك يهملها المؤرخون عادة، فتمر أمام انظارنا مراسيم البلاطات الأجنبية وأزياء الشعوب المختلفة وتقاليدها وحرفها وأصناف الأطعمة والأغذية، فهو بهذا ليس كتاباً نظرياً جافاً، بل على العكس من ذلك، يفيض بالانسانية والحيوية، ولايبخل فيه المؤلف بملاحظاته وتعليقاته في أية مناسبة تعرض، وهو لايمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية فحسب، بل يقدم كذلك نموذجاً صادقاً لأفكار وتصورات مواطن إسلامي من اهل القرن الرابع عشر، كما يقول الدكتور محمد ترحيني.

الهوامش والمصادر

(١) د. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص١٣٦ دار الرائد العربي - بيروت. ١٩٨١.
مجلة (دراسات عربية) - العددان ٦و٧ بيروت/١٩٨٧. اكد في العدد ٦و٧ من مجلة (دراسات عربية) ١٩٨٧ بانه سيخرج (تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) اي رحلة ابن بطوطة مجلّة جديدة. تسلط الضوء على اهميتها التاريخية والجغرافية والادبية على حد سواء.

(٢) د. محمد ترحيني: ابن بطوطة.

(٣) د. منجد محمد مصطفى: مجلة الرسالة الاسلامية - العدد ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) الرحلة ص١٢٣ - ١٢٤.

(٥) د. منجد مصطفى بهجت: العراق في رحلتي ابن جبير وابن بطوطة - مجلة (الرسالة الاسلامية) ص ١٨٤ - ١٩٣.

(٦) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(٧) د. زكي محمد حسن: نفس المصدر ص ١٣٧.

(٨) ابن جزي: ولد بغرناطة وشغل منصب الكاتب لدى السلطان ابي الحجاج يوسف من بني نصر (٧٣٣ - ٧٥٥هـ - ١٣٣٣ - ١٣٥٤م) ثم لم يلبث ان اختلف معه فرحل عنه ليشغل نفس المنصب في بلاط السلطان ابي عنان. واتم ابن جزي عمله في ثلاثة اشهر. فقد انتهى من "تقييد" الفاظ ابن بطوطة في كانون الاول ١٣٥٥م/٧٥٦هـ ووافته المنية في نفس العام.

(٩) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١٠) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١١) د. زكي محمد حسن: نفس المصدر ص١٣٨ - ١٣٩.

(١٢) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) : (رحالة ايطالي، اشتهر بكتابه المعروف (عجائب الدنيا)او (المليون). وقصد به تدوين مذكرات تاجر، يهديها الى التجار، الا ان تسجيله الدقيق لكل مارأى، ولكل ملفت انتباهه في رحلته يفوق هذا الاهتمام. ويثير انتباه جمهور القراء الاوربيين على اختلاف مستوياتهم وبلادهم ومعتقداتهم. فالسرد يقوم اساساً على ذكريات يسترجعها الكاتب وهو في سجنه، بعد خمسة عشر عاماً من غربته من رحلته التي استمرت فترة طويلة قضاها في رحاب الحضارة الشرقية. وكانت السنوات الاربع والعشرين التي قضاها "ماركو بولو" في رحلته تمثل اجمل سني عمره، فهي فترة شبابه. ولذا نجد حماسه لما رأى وتكريمات الدهشة التي شعر بها امام الغرائب التي شاهدها هي التي الهمته مكتب...).
راجع التفاصيل في مجلة الهلال - العدد السابع/١٩٧٥ مقال د. سوزان اسكندر: صفحات من ادب الرحلات.. بين ماركو بولو والبرتو مورافيا).
وانظر: مواقف حاسمة/محمد عبد الله عنان.
القاهرة/الطبعة الرابعة، ١٩٦٢

(١٣) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١٤) د. محمد ترحيني: نفس المصدر.

(١٥) د. نوري حمودي القيسي: من ادب السفر والرحلات في المأثور الادبي - رحلة ابن بطوطة - مجلة معهد البحوث والدراسات العربية - العدد ١٣ ص ٧٧.

(١٦) د. زكي محمد حسن: المصدر السابق ص ١٧١.

• • •

في الغاو مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم تحطمت احلام غزاة الارض العربية.

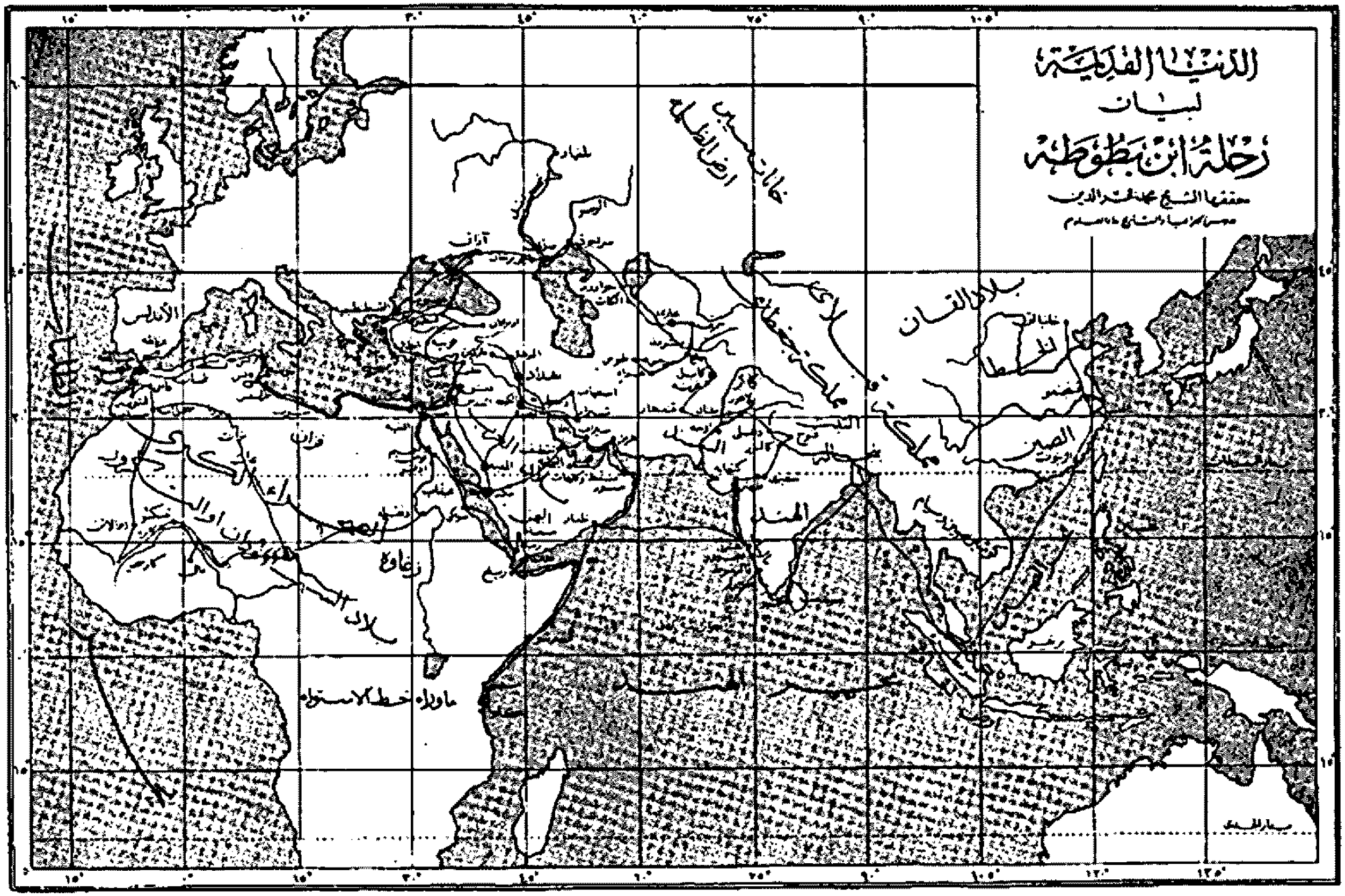

نقلا عن كتاب « مهذب رحلة ابن بطوطة »